

# الله مستال

مكانتها، حقيقتها البلاغية، منشؤها، صلتها بالحياة

د. عبد الكريم اليافي

تعد الأمثال من الفنون الأدبية • وقد اتسعت صدور المعجمات العربية القديمة لذكرها وضبطها وتفسيرها • وكذلك ألقت في جمعها وتفسيرها وبيان مواردها وأصولها طائفة من الكتب أشهرها جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ومجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني والمستقصى لأبي القاسم جار الله الزمخشري •

تعتبر الأمثال أيضاً من الأدب الشعبي ، اذ يشتمل هذا الأدب على السير الشعبية وعلى الأمثال أو الأقوال الموجزة التي تتضمن حكماً بليغة أو تجارب إنسانية مفيدة أو تعطي قواعد للتصرف والسلوك • وقد تكون الأقوال متضاربة ومتناقضة وذلك لتناقض ظروف الحياة وتضاربها وتفاوت تجارب الإنسان نجاحاً أو اخفاقاً واختلاف نزواته النفسية وتباين أحواله الاجتماعية • ولكن كل مثل من الأمثال أو حكمة من الحكم يصلح لمناسبة معينة ولحالة عارضة خاصة تشبه الحال الأولى التي قيل فيها المثل وتطابقها شيئاً من المطابقة •

والأمثال شائعة عند جميع الأمم قديمها وحديثها • والعربية القديمة منها كانت في الأصل من الأدب الشعبي • ولكنها التقطت من أفواه العرب وسجلت في الكتب الأدبية واللغوية فيما سجل من الألفاظ والأشعار والأقوال والحكم والخطب والروايات وأشباهها • فأصبحت الآن من الأدب « الاتباعي » ومن الفنون الأدبية

التي تدرّس في المدارس وفي أقسام اللغة والأدب العربيين من الجامعات كما تتخذ موضوعاً من موضوعات الدراسات النفسية والاجتماعية وغيرها .

هذا الى أن هنالك أمثالا شائعة في اللهجات العامية في كل قطر من أقطار الوطن العربي الواسع يتداولها الناس في حياتهم العادية .

ولا يكاد يخلو المرء من أن يتمثل ببعض الحكم القديمة المؤثثة أو الحديثة المتداولة في حياته اليومية تلقاء ما يعرض له من أحداث وما يرى من شؤون وما يبتدر فكره من تأملات فيطبق ما يحفظه من الأمثال عليها يعطي بها رأيه وينفث شجنه فتسترعي اهتمام السامع وتطامن حيرته وتنفي استغرابه بما تتضمن من حكمة موجزة وبما تشير اليه من تشابه الأحداث وتكرر الصروف وبما تقدم اليه من موعظة ومن تبصرة . وكان قائل الأمثال ومرسليها حكماء أدركوا أسرار الحياة ووعوا كنه المجتمع واستنبطوا نزوات النفوس ونفذوا الى أغوارها . ولقد غدت الأمثال بأنواعها كما أسلفنا موضوع دراسات نفسية واجتماعية وفلسفية ولغوية وتاريخية سواء كانت قديمة مسجلة باللغة العربية الفصحى أو عامية متداولة في اللهجات المحلية تجري في نسغ الحياة الراهنة وتطالعنا كل يوم صباح مساء في الطريق وفي مكاتب العمل والمنازل وعند الراحة واللهو وفي الحديث الدائر بين الناس وكأنها الخبز أو القوت اليومي أو التوابل على موائد الطعام .

تفنن المفكرون في وصف الأمثال وبيان حقيقتها . جاء في الكتب العربية القديمة أنه سُميت الحكم 'القائم صدقها في العقول أمثالا لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثل الذي هو الانتصاب من قولنا مثل بين يديه (١) . هذا المثل راجع الى مكانتها البلاغية وصورها المؤثرة ، قال ابراهيم النظام الفيلسوف المعتزلي : يجتمع في المثل أربعة لاتجتمع في غيره من الكلام : ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة (٢) . وقال ابن المقفع الكاتب الشهير : اذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وأنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث (٣) .

كذلك نجد في الكتب الأجنبية قديمها وحديثها تنويهاً بقيمة الأمثال . وقد صور الشاعر الانكليزي تينسون Tennyson الأمثال تصويراً بديعاً حين قال فيها : انها جواهر ترمي بلألائها الأخاذ في خضم الأبدية من فوق أنامل الزمان الممدودة (٤) .

وقد تتفاوت مكانة الأمثال ويختلف مدى اعتمادها بتفاوت المجتمعات. نوه القصاص الإفريقي شينوا أشيبي Chinua Achebe بقيمة الأمثال عند قبائل الإيبو Ibo في نيجيريا حين كتب أن فن المحادثة رفيع الاعتبار لديهم وأن الأمثال تجري بمنزلة زيت النخيل الذي يؤكل مع الكلمات. ويذكر عالم الأنثروبولوجية جون ميسنجر John Messenger أن القضاة في مقاطعة أنانغ إيبيو Anang Ibibio في نيجيريا أيضاً يتأثرون في المحاكم خلال المرافعات بالأمثال (٥) .

لقد قيل في الأمثال إنها جواهر شعبية وإنها رصائع نقشتها الشعوب بحكمها ومواعظها الخالدة . ولكن الفرق بين المثل والجوهر هو أن الجوهر يحفظ ويصان ويبقى للأولاد بدعياً على مدى الزمان على حين أن المثل يتداوله الناس ويتوارثونه، ولكن أمواج الزمن العاتية في إبان العصور المتطاولة تأكل اللغات وتضعف أحياء ألفاظها وتطوي الأحوال التي قيل المثل فيها فيستغلق فهمه أحياناً ولا تكاد تدرك الحكمة فيه فيغدو في متحف المعجمات . وإنما يسترعي أنظار علماء اللغة كما تسترعي المستحاثات والآثار القديمة عيون العلماء المختصين . وذلك شأن الأمثال القديمة .

إن تلك الأمثال القديمة زيادة على ذلك تنساب في مطاوي العقل الجمعي للشعب أو الأمة . وقد تكشف عنها صفحات الكتب وتجلو الدراسات مضامينها ومواردها فتتضح شيئاً فشيئاً إذا أزيل عنها ما علق بها من غبار الزمن وصدأ التعابير القديمة، وعندئذ تتوهج وتزودنا بمعلومات مفيدة وبحكم بليغة .

نورد الآن بعض مذكره علماء اللغة والبيان العرب حول المثل واشتقاقه وخصائصه .

جاء في معجم مقاييس اللغة « الميم والثاء واللام أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء للشيء . وهذا مثل هذا أي نظيره . والمثل والمثال في معنى واحد . وربما قالوا مثيل كشيء . . . والمثل المثل أيضاً كشبه وشبهه . والمثل المضروب مأخوذ من هذا لأنه يُذكر مورى به عن مثله في المعنى . »

المثل اذن في الأصل بمعنى النظر كالمثل ثم نقل منه الى القول السائر أي الفاشي بين الناس الممثل بالمورد أي الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام وبالمضرب أي الحالة المشبهة التي أريدت بالكلام . ومعنى ذلك أن المثل يشتمل على ضرب من التشبيه هو التشبيه التمثيلي : ويترتب على هذا أن معنى المثل أيضاً

الصفة فيراد بالمثل وصف حالة بحالة مشابهة سابقة أو بأمر حسي . جاء في القرآن الكريم : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » ( ١٤ - ١٨ ) وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس تقريباً من الأفهام . وجاء فيه أيضاً : « ألم تر أن الله ضرب مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » ( ١٤ - ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ) فهذا كله تشبيه تمثيلي . وقد يُضمر التشبيه التمثيلي أو يتناسى ويكون وجه التشبيه منتزعاً بطبيعة الأمر من متعدد . وهذا ما يدعى بالمجاز المركب . فإذا شاع وفشا استعماله على سبيل الاستعارة سُمي عندئذ مثلاً . ولهذا لا تغيّر الأمثال بل تروى على حالها دون تبديل لأن الاستعارة يجب أن تكون لفظ المشبّه به المستعمل في المشبّه . فلو غيّر المثل لما كان لفظ المشبه به بعينه فلا يكون استعارة ، فلا يكون مثلاً . ولهذا لا يلتفت في الأمثال الى مضاربها تذكيراً وتأنيثاً وإفراداً وتثنية وجمعاً . بل ينظر الى مواردها (٦) . اذا طلب رجل شيئاً ضيعه قبل ذلك قيل له : « في الصيف ضيّعت اللبن » بكسر تاء الخطاب لأن المثل قد ورد في امرأة كانت تحت شيخ كبير ففركته أي كرهته فطلقها ثم تزوجها فتى جميل الوجه وأجدبت فبعثت الى زوجها الأول تطلب منه حلوبة (أي شاة تحلب) فقال: في الصيف ضيّعت اللبن . وانما خص الصيف لأن سؤالها الطلاق كان في الصيف . قيل : ان تلك المرأة لما سمعت ما قاله زوجها الأول ضربت يدها على منكب زوجها الثاني وقالت : « هذا ومِدقةٌ خير » والمِدقة الشربة من اللبن الكثير الماء تعني أن هذا الزوج مع عدم اللبن خير من الأول . فذهبت كلمتاها مثلاً يضرب الأول لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه كما ذكرنا آنفاً ويضرب الثاني لمن قنع باليسير اذا لم يجد الخطير ، كما جاء في مجمع أمثال الميداني .

والحاصل أن المثل كلام استعمل في مضربه بعد تشبيهه بمورده . فمضربه ما استعمل فيه الكلام الآن ومورده ما استعمل فيه الكلام أولاً .

والغالب على مرسل المثل صفة البلاغة وإحكام القول . وسيد البلغاء الرسول صلوات الله عليه فكلامه جوامع الكلم . ومما سار من كلامه مثلاً قوله : « ان من

البيان لسحراً» قاله النبي حين وفد عليه عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهتم عن الزبرقان فقال عمرو : مطاع في أدنيّه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : يا رسول الله : انه ليعلم مني أكثر من هذا ولكنه حسدني . فقال عمرو : أما والله إنه لزم المرء ضيق العطن أحق الوالد لثيم الخال ، والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى . ولكني رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت . فقال عليه الصلاة والسلام : ان من البيان لسحراً . يعني أن بعض البيان يعمل عمل السحر . ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحق . والبيان اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسن . وانما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه وسرعة قبول القلب له . يضرب في استحسان المنطق وايراد الحجة البالغة كما جاء في مجمع الأمثال للميداني .

وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام : «ان المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» المنبت المنقطع عن أصحابه في السفر . والظهر الدابة . قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتهد في العبادة حتى غارت عيناه . يضرب لمن يبالغ في طلب الشيء ويفرط حتى ربما يفوته على نفسه .

وقد يجري شطر البيت من الشعر مجرى المثل وهذا ما يدعى في الأدب ارسال المثل كقول أبي فراس :

تهون علينا في المعالي نفوسنا      ومن يخطب الحساء لم يغله المهر  
أو يجري بيت كامل من الشعر مجرى المثل كقول أبي الطيب :  
بذا قضت الأيام ما بين أهلها      مصائب قوم عند قوم فوائد  
وقوله أيضاً :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه      تجري الرياح بما لا تشتهي السفن  
وقد اشتهر المتنبي بأمثال هذه الآيات الأوابد .

ذكرنا آنفاً أن الأمثال قد تتضارب وتتناقض لتناقض صروف الدهر وأحوال الناس وتقلبات الأيام ، ثمة حكم كثيرة وأقوال تشيد بالأناة وتشير الى حسنها وطيب عواقبها كقولهم : في التأني السلامة وفي العجلة الندامة ، وقول الشاعر :

ومن تانى نال ما تمنى وعاش طول عمره مهتاً

وقد جاء في حكم العرب « رب عجلة تهب ريثاً » (٦) . وورد في مقابله « رب ريث يُعقب فوتاً » .

وقد صاغ القطامي المعنى الأول في بيت من الشعر من قصيدة له فसार البيت مثلاً :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

ولكن شاعراً آخر ، أو هو القطامي نفسه قال نقيض هذا البيت في وزنه

ورويته :

وربما فات قوماً جلّ أمرهم من التاني وكان الحزم لو عجلوا

ولمكانة الأمثال وقوة تأثيرها في الناس بسبب ايجازها واحكام معانيها والايحاءات التي تتضمنها اعتمدها الكتاب في رسائلهم والخطباء في خطبهم .  
انها زاد المفوّه البليغ أستاذاً كان أو محامياً أو سياسياً أو حاكماً .

لما خطب الحجاج في أول أمره أهل الكوفة حسر اللثام عن فيه كما هو معروف ونهض وبدأ خطبته متمثلاً ببيت من الشعر هو لسحيم بن وثيل الرياحي :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

ولم يكد يتفوه ببعض الجمل القصيرة حتى تمثل بشعر آخر شديد الوقع :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواقٍ حطّم

ليس براعي ابل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم

قد لفها الليل بعصليّ أروع خراج من الدويّ

مهاجر ليس باعرابي

قد شمّرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجذوا

والقوس فيها وتر عُرِد مثل ذراع البكر أو أشد

لا بد مما ليس منه بدّ

كل هذه الأبيات أمثال سائرة تقع مواقع القنابل في السمع . ثم يتابع خطبته بتعابير هي أيضاً أمثال ومجازات مركبة : اني والله يا أهل العراق ما يقع لي بالشنان ولا يغمز جانبي كتغماز التين . الى آخر هذه الخطبة الملتهبة .

ولم يوجد قوم في تاريخ الحضارات عرفوا بالبلاغة كالعرب ولذلك كثر استعمال الأمثال وغيرها عندهم . بل ان بلغاءهم تجري كل فقرة من كلامهم مثلاً أو كالمثل .

★ ★ ★

هذا وربما قل استعمال الأمثال في العصر الحاضر ، عصر السرعة والتغير الحثيث ، عصر التشويش ، عصر سرقة الأراضي من تحت أقدام أصحابها ، عصر تخزين الأسلحة من كل صنف ، عصر التقنيات الهائلة والأخطار الذرية والهدروجينية الماثلة التي تتهدد كيان هذا الكوكب الجميل الذي تعيش عليه الإنسانية المعذبة والذي ظل أبناؤها طوال القرون الطويلة الماضية يتنادمون على سطحه بالشعر والأمثال والأغنيات الحلوة والحب المبدع .

ولكن اعتماد المثل قد يفيد حتى في أخرج الأوقات وأدق الأزمات ، يستعمله الانسان العادي كما يستعمله السياسي المسؤول والباقة المحنك . يروى عن نيكيتا خروشوف أنه كان يحمل معه دائماً كتاب أمثال روسية يطالعه ويحفظ تعابيره ليفجأ بها محدثه بلحظه النافذ المدور وحاجبيه المتوجين ووجهه البشوش . لما زار باريس قال في حديث له : اذا دخل القط بيت الحليب وجب الامساك بذنبه ودق جمجمته بالحائط . وقال مرة يندد باحدى الدول الغربية : اذا نام المرء بين كلابه حمل عند يقظته البراغيث . ولما تقابل هو وجون كندي عند الأزمة السياسية الشهيرة حول صواريخ كوبا أراد أن يستميل ضيفه فشرب نخبه قائلاً: قدحي صغير ولكن عواطفي كبيرة . وقوله هذا مثل عندهم . ورد عليه كندي اذ ذاك ذاكراً كلمة لموتسي تونغ وهي : السلطة السياسية تخرج من فم البندقية . وذكر كلمة أخرى للزعيم الصيني الكبير وهي : رحلة ألف كيلو متر تبدأ دائماً بخطوة (٧) . ان هذه الحكمة الصينية الأخيرة تذكرنا بقول ابن الوردي : كل من سار على الدرب وصل . بل تذكرنا بجملته ساحرة قلّ مثيلها لصوفي قديم هو ذو النون المصري : بأول قدم تطلبه تجده .

ان نيكيتا خروشوف شهر في خطبه بتلك الأمثال التي تمتاز بنكهتها المرة الساخرة . لما رجع من زيارة الولايات المتحدة ألقى خطاباً في الجماهير السوفياتية ونحن نتذكر ما جاء في خطابه الذي قرأناه مترجماً الى اللغة الفرنسية من التنديد

بالاستعمار القديم والاستعمار الحديث وقوله : لقد بَلَّوْنا الاستعمار القديم و بَلَّوْنا الاستعمار الحديث فاذا الثوم ابن عم البصل . المراد هنا كما هو واضح التمثيل لهما بخبث الرائحة . ولكن هذا القول يذكرنا مثلاً عربياً قديماً كنا حفظناه وهو « لا يعجز مَسْكَ السوء عن عَرَفِ السَّوء »<sup>(٨)</sup> أي لا يعدم الجلد السيء رائحة خبيثة . يضرب للرجل اللئيم يكتُم لؤمه جهده فيظهر في أفعاله وتصرفه . وهذا المثل ينطبق على الجماعات كما ينطبق على الأفراد . وهو أبلغ من المثل الأجنبى في عمق دلالاته ولكنه أقل اشتمالاً منه على مسحة التهكم وأقل ابتعاثاً للابتسام والتهانف . والمسك بفتح الميم الجلد كما هو معروف ، والعرف الرائحة مطلقاً وأكثر استعماله في الطيبة . فاذا أريدت الرائحة الطيبة عمق معنى المثل اذ يحذر المرء من الظاهر المرائى المتلطف يبدو به اللئيم السيء الطبع .

الخلاصة أن الأمثال كما قلنا آنفاً كالتوابل في الطعام أو هي كالفاكهة على المائدة . وهي شائعة عند جميع الأقوام في آدابهم وفي أحاديثهم . وقد يقع تشابه واسع في معاني الأمثال ومضاربها عند الأمم كما يقع تناقض في الأمثال أنفسها .

وأياً كان الأمر ففيها من الحكم وتنبيه الغافل وشحذ الهمة والتأثير في السامع ومواساة المصاب وتمجيد المحسن مالا يستطيع تعبير آخر افادة ذلك بمثل ايجازها وملاءمة مواقعها . انها كالعطور المكثفة في القوارير أو اللآلىء التي تتحلى بها الحسان على أنه ينبغي مراعاة مقتضى الأحوال التي تضرب فيها . في هذه المراعاة أولاً وآخرأ سر البلاغة كما عرفها العرب القدماء .

★ ★ ★

□ الحواشي :

١ و ٢ - مجمع الامثال للميداني . المقدمة .  
Dictionnaire des proverbes du monde, réunis, classés et  
présentés, par Elian - J. Finbert. Robert Laffont, Paris. ٤ - أول شعار في كتاب

٥ - Encyclopedia Universalis مادة فلكلور.

٦ - حاشية الدسوقي على شرح التفتازاني على متن التلخيص ج ٢ ص ٤١٢ - ٤١٦ مطبعة الحاج محرم افندي البوسنوي ١٣٠٩ هـ استانبول .

٧ - انظر مقدمة الكتاب المذكور في الحاشية (٤) .

٨ - مجمع الامثال ( ما جاء في أوله لا ) ويرد هذا المثل في كثير من المعجمات العربية .